سلسلة النصائح الذهبية

السر الرهيب
الذي دمر الرجل الطيب

«قصة من واقع الحياة»

تأليف

د.أحمد بن عبدالعزيزالحصين

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله وحده والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء، محمد وعلى آله وصحبه الكرام، أما بعد:

حياة طيبة(*)

كان رجلاً طيب القلب، يعطف على الصغير ويحترم الكبير، صاحب لحية كثيفة، متمسك بالسنة النبوية، لا يعرف إلا الابتسامة لكل الناس، لم يتعرض في حياته لأي مشكلة من مشاكل الحياة. وكانت حياته هادئة مطمئنة، ترفرف عليه وعلى أسرته السعادة التي فقدت في عصرنا الحاضر.

يخرج **بعد أداء صلاة الفجر** يتجوَّل في أنحاء المدينة في سيارته التاكسي لكي يجمع رزقه اليومي، وفي آخر النهار يرجع إلى بيته ويكون في استقباله أولاده الأربعة: **محمد**، **وعبدالرحمن يوسف، وياسر.**

فيأخذ كل واحد قبلة من أبيهم الطيب ثم يجتمعون حول المائدة للعشاء. وكانت زوجته قائمة على شؤونها المنزلية، وتربية أولادها أحسن قيام، فهي زوجة لا تعرف الإسراف ولا التبذير،

(*) قصة من الواقع لا من نسيج الخيال.

لا تخرج من بيتها إلا لضرورة وبأذن مسبق من زوجها. فهي عائلة لا ينقصها أي شيء، فالأولاد يذهبون إلى المدارس الحكومية وهم متفوقون في دروسهم. والزوجة تقوم بوظيفتها الطبيعية في المنزل، والزوج يذهب للبحث عن رزقه، والعجيب أن سيارة هذا الرجل الطيب **لا تحتوي إلا على أشرطة القرآن الكريم** أو المحاضرات الدينية والنصائح الطيبة، وكان هذا الرجل لا يطلب من الركاب إلا القليل من الأجر، وربما يتساهل مع بعض الركاب الذين لايستطيعون اعطاءه الأجر كاملاً.

وكان الركاب يحبون هذا الرجل حتى أن بعضهم ينتظره حتى يأتي لكي يركب معه، لأنه يجد الراحة والطمأنينة معه. وتلك هي **خلاصة الأمانة والمعاملة** الحسنة والخوف من الله، فالإيمان هو النور المستقيم في حياتنا.

وكان هذا الرجل يتفرَّغ كل أسبوع للذهاب إلى البراري مع أولاده بعد أداء صلاة الجمعة. وهناك ينطلقون بين **صحرائها ورمالها** وسهولها الجميلة. ويحملون ما لذَّ وطاب من أنواع الطعام. حتى إذا أرخى الليل سدوله رجعوا إلى بيتهم الجميل، تكللهم البهجة، وترفرف عليهم السعادة. والأولاد الأربعة ينظرون إلى أبيهم نظرة حب وليس أي حب، وإنما حب تغلغل في قلوبهم

ووجدانهم. فهم ينظرون إلى وجه أبيهم ذي اللحية الكثيفة والقلب الكبير والذي يتلألأ نوراً ووقاراً، فهذا الرجل الطيب لايعرف: **الحسد، ولا البغضاء، ولا البخل، ولا الأنانية، ولا الكراهية.** ويعمل الخير أين ما يكون ويساعد الآخرين بكل ما يستطيع.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه... هل هذه الحياة السعيدة تدوم؟! هل هذه الابتسامة تستمر؟! وهل هذه المعاملة مع أولاده تتغير؟! فالإجابة نعم... فالحياة لا تبقى على وتيرة واحدة...

في ليلة من الليالي بينما هو راجع إلى بيته بعد عناء يوم كامل، وشفتاه تتحرك بالتسبيح والتهليل لرب العالمين، وكانت الساعة الثانية عشرة صباحاً وهذه أول ليلة يتأخر فيها عن بيته، ولكن قدَّر الله وما شاء فعل وإذا أراد الله شيئاً قدَّر أسبابه، وكانت الشوارع خالية من المارة إلا نادراً. وهو **يسير وراديو السيارة تنبعث منه آيات** من الذكر الحكيم وهو سارح في عالم إيماني، وقلبه **متعلق مع الآيات القرآنية.** ثم رفع بصره فجأة فشاهد امرأة متوسطة العمر واقفة فوق الرصيف وهي تلوِّح بيدها إليه فوقف لها: **وقال: ماذا تريدين يا خالة؟** قالت: وهي **تتألم ويظهر** عليها الجهد من آثار الحمل الذي أوشك على نهايته: أريد أن تذهب بي إلى مستشفى الولادة بسرعة.

فقال: اركبي يا خالة؟

فقالت: جزاك الله خير الجزاء.

فقال: آمين. آمين. إن هذا الدعاء أعظم من الدراهم.

وهو يسير في طرقات المدينة وهي تتألم من آلام الوضع وحين وصل إلى المستشفى قال لها: **يا خالة هذه هي مستشفى الولادة. فقالت له: ساعدني في النزول. فقام الرجل وفتح لها الباب. فقالت له: أرجوك أن تدخلني إلى المستشفى. فقال: يا خالة إنني متأخر جداً عن أولادي وبيتي فلا أستطيع أن أساعدك أكثر من هذا. فقالت بصوت عالٍ: أتتهرب من ولدك الذي في بطني؟ يا أناني.. يا مجرم.. هذا ولدك وأنا زوجتك..** فقال: **مادا تقولين يا خالة**، اتقي الله فإنني لا أعرفك ولم أرك إلا الليلة.

وكانت هناك **سيارة شرطة** عند بوابة المستشفى رابضة لتقديم الخدمة للمواطنين. فقالت: **يا ناس يا شرطة..** هذا الرجل يريد أن يتهرَّب من ابنه الذي في بطني. فجاء الناس من كل حدب وصوب ومنهم الشرطة. وأمسكوا بالرجل وهم يقولون: **اتق الله يا رجل؟ أتهرب من ولدك؟ أين الرحمة؟ أين إسلامك؟** وأنت رجل متدين؟ **وصاحب لحية كثيفة وثوب قصير** كل هذه علامات على أنك رجل طيب. أتتهرب من مسؤوليتك؟

فوقف الرجل الطيب المبتلى أمام هؤلاء صامتاً لاينطق بكلمة وهو يخاطب نفسه: **إنا لله وإنا إليه راجعون.**

وأقتيد الرجل من قِبَلِ رجال الشرطة إلى المستشفى وأدخلت المرأة الفاجرة إلى قسم الولادة. **وبعد برهة جاءت الممرضة تبشره قائلة: مبروك زوجتك أنجبت لك ولداً؟**

وهنا وقف الرجل قائلاً: **ليس ابني... ليس ابني... لا أعرفه ولا أعرف أمه.**

وجاء الموظف ليأخذ منه معلومات حتى يستخرج لهذا الطفل **شهادة الميلاد** ولكن الرجل أبى أن يعطيهم أي معلومات. وأصرَّ على أن هذا الطفل ليس ابنه. وبعد مداولات وأخذ ورد تقرر أن يتم فحص عينة من حيواناته **المنوية** بواسطة الأطباء.

وبعد فترة قضاها هذا الرجل ما بين الشرطة وإدارة المستشفى أخذوا عينة من حيواناته المنوية، وبعد فترة خرجت النتيجة المدمِّرة التي دمَّرت حياته وحياة أسرته بالكامل؟!

ولكن الأطباء ورجال الشرطة لم يخبروه بالنتيجة، ولكنهم قالوا له: اذهب فأنت بريء من هذه التهمة وأن هذ الطفل ليس ابنك.

ولكن الرجل **وقف كالصنم** لا يعرف ما الأسباب التي جعلتهم

يقـولون له أنت بريء؟ بعـد أن كـانوا يصـبـون عليـه العـذاب صـبـاً، وينظرون إليه على أنه: **مجـرم. ومغـتصب وإرهابي**. وأخيـراً يقولون له بكل بسـاطة اذهب فـأنت حـر، فـلابـد أن في الأمـر سـراً... **مـا السـر** الذي جـعل هؤلاء يقـولون هذا الكلام بعـد أن قـدَّمـوا له الأسف الشديد على سوء الظن و سوء المعاملة؟!

لابد أن يعرف السبب!

فقال: **أريد أن أعرف السبب** الذي جعلكم تقولون لي أنت حـر بعد سوء المعاملة وسوء الظن؟ هذا حق من حقوقي.

أريد أن أعـرف ما سبب انقلابكم بعد أن كنتم تتعاملون معي بجفاء واحتقار؟

وبعد أن ألحَّ عليهم، قال كبيـر الأطباء: أنت عقيم يا رجل يا طيب؟!

وهنا نزلت الصاعقة على رأسه.

مـاذا تقـول؟! مـاذا تقـول؟! يـا دكـتـور أنـا عـقـيـم؟! أنا عـقـيـم؟ أنا عقيم؟ كيف هذا ولديَّ أربعة من الأولاد كيف هذا؟! كيف؟!

قال الطبيب: هذا حكم الله يا رجل يا طيب.

فخرج الرجل وكأنه يحمل الدنيا بجبالها وأشجارها وسهولها

فوق رأسه. **وكلمات يقولها؟ هذا مستحيل؟ هذا كذب؟ هذا دجل؟**

هؤلاء الأطبــاء لا يعــرفــون مــهنة الطب هؤلاء يريدون أن يضحكون عليَّ هؤلاء وهؤلاء...

وهكذا أخذ الرجل يتخبَّط في كلامه: **تارة يكلم نفسه، وتارة يكلم الماره، وتارة يضحك، وتارة يبكي،** وأخيراً قرر الذهاب إلى دكتور خاص لإعادة **الفحص المنوي**. وهكذا أظهر الفحص المنوي أنه عقيم منذ الصغر؟ وكرر الفحص مرة ومرتين وثلاثة...وهكذا دأبه حتى أيقن أنه عقيم فعلاً فتدهورت حياته. وترك عمله وتغيَّر وجهه، **واختفت الابتسامة من وجهه**، وأظلمت الدنيا أمامه فلا يعرف الليل من النهار، ولا طعم الطعام، **وأخذ يسهر الليالي**، وتغيَّرت **معاملته مع أولاده**. فينظر إليهم نظرة قسوة وكذلك زوجته.

وبدأت الشكوك تسيطر عليه. فإذا رأى أولاده جالسين حول المائدة ينظر إليهم قائلاً: **أولاد من هؤلاء يا ترى؟ أهم أولاد عشيق واحد؟ أم أولاد عشاق عدة؟ أم هم أولاد لقطاء؟**

فهجر فراش الزوجة وهجر أولاده. وترك عمله وسيارته التاكسي في شوارع المدينة. وبدأ أولاده يشعرون بهذا الانقلاب المفاجئ ضدهم، وارتسمت **علامات الخوف والفزع** في وجوههم.

واختفت ابتسامات الطفولة البريئة منهم، وعاشوا في جحيم، وسبحانه مغيِّر الأحوال.

وهكذا عاش هذا الرجل في صراع دائم مع نفسه. وهو يبحث عن دليل واحد يقوده إلى الحقيقة قبل أن يفقد عقله ووجدانه وحتى يرتاح نفسياً من هذا الهم و**الكابوس الشيطاني**. وفي **يوم من الأيام** أراد هذا الرجل الطيب أن يضع حداً فاصلاً لعذابه، وأن يعرف الحقيقة الضائعة؟ فقرر الانتقام من زوجته.

فقال لها: يا زوجتي استعدي غداً أنت والأولاد للذهاب إلى البراري للتنزه. وفرحت الزوجة والأولاد بهذا الخبر الجميل وخاصة أنهم عاشوا أياماً في **كابوس مخيف خيَّم عليهم**، وظنوا أن والدهم قد تغيَّر إلى حال أحسن، وأن مشاكله قد انتهت.

ونام الأطفال على أن يقوموا في الصباح مبكراً للذهاب إلى النزهة، **وأشرقت الأرض بنور ربها**، وغرَّدت العصافير، وتفتَّحت الزهور، وتساقط الندى الجميل. وقد أعدَّت الزوجة ما لذَّ وطاب من الطعام لهذه الرحلة. ولبس الأطفال أزهى لباسهم، وأخذوا معهم لعب التسلية. وصاح محمد: لا تنس يا **عبد الرحمن** إحضار **الكرة لكي ألعب** بها معك وأتغلب عليك كما تغلَّبت عليَّ سابقاً.

وركب الأطفال السيارة **والابتسامة تلوح في وجههم والمرح والبشاشة في براءتهم الطفولية.**

وأما صاحبنا الرجل الطيب لم يتغيَّر ولم تخرج منه الابتسامة إلا مجاملة للأولاد. والسيارة تسير بهم في الشوارع والرجل سارح في أفكاره الحزينة. **والأولاد تارة يضحكون. تارة يضربون بعضهم، وتارة يشيرون على مدرسة، فيهتفون: هذه مدرستنا هذه مدرستنا.**

ووصلوا إلى دوحة جميلة يكثر فيها العشب والزهور والطيور، ونزلوا تحت شجرة جميلة كثيفة الأغصان، فلا تسمع إلا أصوات الطيور الجميلة وهي تغرد. وأخذ الأولاد يلعبون بالكرة هنا وهناك. وقامت الزوجة بإعداد الطعام، وهو واقف ينظر إلى أولاده والدموع تسيل على خديه، وشفتيه تخاطب هؤلاء الصغار قائلاً: **هؤلاء أولاد من يا ترى؟ هل هم لأب واحد؟ لا لا بل هم لأكثر من أب. هؤلاء أولاد حرام.**

ثم ينظر إلى زوجته هذه زوجتي التي عاشت معي سنين طويلة تخونني؟

كم يا ترى عاشرت من الرجال الأجانب وتنسب هؤلاء الأولاد إليَّ. **إنها خائنة. إنها مجرمة. إنها عاهرة.**

وهكذا أخذت الأفكار تدور في رأسه وهو يريد الحقيقية الغائبة عنه، الأطباء يقولون إنه عقيم ولديه عدة أولاد.

أين العقم يا ترى؟!

وهنا أراد أن يعرف الحقيقة فقرَّر أن يعمل أي شيء حتى يصل إلى الحقيقة. فنادى بأعلى صوته إلى ابنه الكبير محمد الذي يبلغ من العمر (٩) سنوات قائلاً: **يا محمد؟! يا محمد تعال هنا؟!** جاء محمد مسرعاً بعدما ترك الكرة والابتسامة تلوح بين شفتيه. قائلاً: **ماذا تريد يا أبي؟** فأخذ الرجل محمد واضجعه على الأرض **ثم ربط يديه ورجليه وأخرج سكيناً كانت مختفية بين ثيابه ووضعها في عنق هذا الطفل البريء.**

والطفل في ذهول وخوف وهو يصرخ: **ماذا تفعل يا أبي؟ ماذا تفعل يا أبي؟ وهو يصرخ: لا . لا يا أبي. فجاءت الزوجة مسرعة إلى زوجها: ماذا تفعل يا زوجي؟ ماذا تفعل يا زوجي؟**

افعل كما ترين يا زوجتي العفيفة وصاحبة الفضيلة. إذا لم تقولي الحقيقة سأقتل أولادك الأربعة.

ماذا تقول؟ أي حقيقة تريد أن تعرفها؟

الحقيقة التي أخفيتها عليَّ سنوات: أولاد من هؤلاء يا فاجرة.

قالت: أولادك أنت. قال: أولادي يا فاجرة.

الأطباء أجمعو على أنني عقيم. **عقيم يا امرأة السوء.** وهؤلاء ليسوا أولادي. **أنا عقيم؟! أنا عقيم؟! أنا عقيم؟! لقد قرر الأطباء، طبيب، وطبيب، وطبيب، أنني عقيم.** وإذا لم تعلميني الحقيقة سأذبح ابنك هذا ثم الآخر والآخر والآخر. **ثم أقضي عليكي. أخبريني بالحقيقة؟ أخبريني بالحقيقة؟**

وحين رأت المرأة أن زوجها يريد أن يقضي على أولادها الأربعة وعليها. قالت: سأخبرك بالحقيقة بشرط أن تطلق ابني وترفع السكين عنه. ورفع السكين عن ابنها محمد وأخذت المرأة تبكي بكاء مراً ثم رفعت رأسها قائلة:

قالت: إن هؤلاء الأولاد ليسوا أولادك؟

قال: أولاد من يا فاجرة؟

قالت: هؤلاء هؤلاء أولاد أخيك (يوسف).

قال: كيف هذا؟

كيف هذا يا فاجرة؟ يا خائنة؟ كيف حصل هذا؟

قالت: **كان أخوك يوسف** يأتي إلينا وأنت غائب ويجلس لينتظر قدومك ثم يطلب «قهوة وشاي» ثم يطلب مني أن أشاركه

في شرب القهوة أو الشاي. ولا أعلم إلا **وأنا في نوم عميق**. وهكذا أخذ أخوك يوسف يتردد علينا. حينها قررت أن أعرف **حقيقة نومي** المفاجئ هذا. وفي يوم من الأيام جاءنا وعملت له **الشاي**. وشرب ثم قدم لي **كوباً من الشاي** وأخذت الكوب وتظاهرت أنني أشربه ثم رميت بالكوب وهو لا يعلم، وتظاهرت كأنني نائمة، فقام أخوك **يعاشرني كما تعاشرني** أنت؟

فقمت مسرعة أهدده على هذا الفعل الإجرامي الخسيس. وطردته من البيت، وأخفيت هذا الفعل خوفاً من الفضائح ومنك.

وأنا لا أعرف أنك عقيم إلا هذه الساعة المشؤومة. وكنت **أظن أن هؤلاء الأولاد أولادك وليس أولاد أخوك «يوسف»**.

وقف الرجل كالمجنون لا يعرف ماذا يفعل. **وماذا ينطق. وهو يردد كلمات: أخي يوسف. أخي يوسف. أخي يوسف**. وخرجت من فمه مياه كريهة، **وسقطت الدموع من عينيه**، وجاء **بحركات جنونية** وأولاده ينظرون إليه أو بالأصح أولاد أخيه.

وهو ينظر إليهم قائلاً: **أنتم أولاد مين يا صغار. أنتم أولاد مين يا صغار. أنتم أولادي أم أولاد أخي يوسف. لا. لا أنتم أولاد الشيطان.**

وهنا تجمع **خلق كثير يشاهدون** هذا المنظر المفزع والمحزن في نفس الوقت وجاءت دوريات الأمن ليروا هذا المنظر: وأخيراً أخذوا الرجل إلى **مستشفى الأمراض النفسية.**

وأبطال تلك القصة يعيشون بيننا اليوم في حالة مأساة حقيقية وعذاب للضمير.

فلو أن الزوجة حافظت على بيتها ولم تفتح منزلها لأي كان من الرجال إلا بحضرة الزوج ووضعت الآية الكريمة أمامها لتكون نبراساً وهداية ونور ، لما حدثت تلك المأساة.

وصدق رب العزة والجلال في قوله:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾(الأحزاب:٥٣).

وقول رسوله الكريم حين سئل عن الحمو: قال: «**الحمو الموت**». وقال ﷺ: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان**». (متفق عليه)

فقدْ فقدَ الرجل الطيب عقله، وأصيب بشلل الرعاش، وهكذا **يسدل الستار على مشهد من مشاهد المتساهلين في أعراضهم وشرفهم، فرغم طيبة هذا الرجل وتدينه إلا أنه كان مقصراً في**

الحفاظ على عرضه وشرفه، لسماحه لأخيه بأن ينتظره في بيته في صحبة زوجته بدون محرم، دون أن يعترض وأن ينهر أخاه أو زوجته، وكأن أمر الخلوة عنده هيِّن وسهل.

هذه نتيجة الثقة لمن فتحوا أبواب بيوتهم لكل من هب ودب باسم الأخوة وتناسوا أحاديث رسول الله ﷺ.

وكانت النتيجة الحتمية أن هذا البيت وأمثاله انقلب إلى دمار **وأهلك أهله وشرد أطفاله.**

ولو أنه سار على الهدي النبوي ما حصل الذي حصل، ولكن هذه **إفرزات الحضارة التمدن الأوروبية** التي لا تفرق بين الزوج والعاشق، وبين الزوجة الخائنة والزوجة المستقيمة، نسأل الله العفو والعافية.

أرجو أن نأخذ الدروس والعبر من هذه الحوادث المؤلمة التي **تحرق المسلم في الدنيا والآخرة** أرجو من الله جل وعلا أن يهدينا إلى الصراط المستقيم.